بسم الله الرحمن الرحيم

التَّكَافُلُ الْمُجْتَمَعِيُّ وَاجِبُ الْوَقْتِ ١٧ شعبان ١٤٤٤هـ

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ التَّكَافُلَ الِاجْتِمَاعِيَّ خُلُقٌ سَامٍ لَهُ فَضْلٌ كَبِيرٌ دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَسُنَّةُ نَبِيِّنَا الْعَظِيمِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَفِي ذَلِكَ إِشَادَةٌ بِهِ، وَدَعْوَةٌ إِلَيْهِ. فَفِي كِتَابِ اللهِ جَاءَ الْأَمْرُ بِالتَّكَافُلِ الِاجْتِمَاعِيِّ وَالنَّهْيِ عَمَّا يُخَالِفُهُ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، وَيُبَيِّنُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَاقَةُ أُخُوَّةٍ تَرْأَبُ الصَّدْعَ، وَتُكْمِلُ النَّقْصَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ صَلَاحِ الْحَالِ لِيُصْبِحَ الْمُؤْمِنُونَ كَالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

لَقَدْ حَثَّ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ التَّكَافُلُ فِينَا سُلُوكًا لَا مُقَايَضَةً، فَلَوْ أَسَاءَ إِلَيْنَا شَخْصٌ نُحْسِنُ إِلَيْهِ فَلَا تَقْطَعُ إِسَاءَتُهُ اسْتِمْرَارَ إِحْسَانِنَا، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ [أَيْ: الرَّمَادُ الْحَارُّ]، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَا أَجْمَلَ أَنْ يَرْسِمَ الْإِنْسَانُ السَّعَادَةَ فِي وَجْهِ إِنْسَانٍ، وَمَا أَلَذَّ أَنْ يَغْسِلَ عَنْهُ غُبَارَ الْحَاجَةِ، وَمَا أَحْسَنَ أَنْ يُطْلِقَهُ مِنْ قَيْدِ كُرْبَةٍ، وَيُحَرِّرَهُ مِنْ أَسْرِ مُلِمَّةٍ، وَيُعِينَهُ عَلَىٰ بُلُوغِ مَصَالِحِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ.

وَأَنْعِمْ بِمُجْتَمَعٍ تُظَلِّلُهُ سُحُبُ الْمَحَبَّةِ وَالْوِئَامِ، يَحْنُو الْقَرِيبُ عَلَىٰ قَرِيبِهِ، وَيَعْطِفُ غَنِيُّ الْمُجْتَمَعِ عَلَىٰ فَقِيرِهِ، وَقَوِيُّهُ عَلَىٰ ضَعِيفِهِ، وَقَادِرُهُ عَلَىٰ عَاجِزِهِ، وَصَحِيحُهُ عَلَىٰ مَرِيضِهِ. هَذَا السُّلُوكُ الْإِنْسَانِيُّ الَّذِي يُحَقِّقُ هَذِهِ الْمَقَاصِدَ الْحَمِيدَةَ، وَيُوصِلُ إِلَىٰ هَذِهِ الْغَايَاتِ الْمَنْشُودَةِ هُوَ التَّكَافُلُ الِاجْتِمَاعِيُّ. وَلَا تَنْسَوْا أَنْ تَمُرُّوا بِخَيَالِكُمْ عَلَىٰ بُيُوتِ مُسْلِمِينَ أَعِفَّاء لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا.

عِبَادَ اللهِ: لَقَدْ حَرِصَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ الْبِنَاءَ الْقَوِيَّ وَالْمَنِيعَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ بِهِ أَنْ

يُوَاجِهَ الْكَوَارِثَ وَالْأَزَمَاتِ، وَالْفِتَنَ وَالتَّحَدِّيَاتِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ. وَمَنْ تَتَبَّعَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأَحَادِيثَ النَّبِيِّ ﷺ، وَحَيَاةَ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ فِي الْقُرُونِ الْأُولَىٰ، يَجِدِ الْكَثِيرَ مِنَ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي تُبَيِّنُ أَهَمِّيَّةَ ذَلِكَ، لَا سِيَّمَا عِنْدَ نُزُولِ الْمَصَائِبِ، وَحُلُولِ الْكَوَارِثِ، وَحُدُوثِ الْفِتَنِ وَالشَّدَائِدِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ حَثَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ التَّكَافُلِ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّىٰ»، وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَىٰ نَاقَةٍ لَهُ، فَجَعَلَ يُصَرِّفُهَا يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَىٰ مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلُ زَادٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَىٰ مَنْ لَا زَادَ لَهُ، حَتَّىٰ ظَنَنَّا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي الْفَضْلِ».

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ الْمُسْلِمَ فِي زَمَنِ الْمَصَائِبِ وَالشَّدَائِدِ وَالْفِتَنِ يَتْرُكُ حُظُوظَ نَفْسِهِ، وَمَصَالِحَهُ الشَّخْصِيَّةَ، مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ، فَالطَّمَعُ وَالْجَشَعُ، وَحُبُّ الذَّاتِ يَظْهَرُ فِي النُّفُوسِ الضَّعِيفَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَثْبُتُ عَلَىٰ الْأَخْلَاقِ الْعَظِيمَةِ فِي مُخْتَلَفِ الظُّرُوفِ إِلَّا الْعُظَمَاءُ، أَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي الصَّحِيحَةِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمَعْرُوفُ إِلَىٰ

النَّاسِ يَقِي صَاحِبَهَا مَصَارِعَ السُّوءِ، وَالْآفَاتِ، وَالْهَلَكَاتِ، وَأَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ»، وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي «مَعَاجِمِهِ الثَّلَاثَةِ»، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ» عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ ﷻ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَىٰ اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَىٰ مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دِينًا، أَوْ تُطْرَدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلِأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ، يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ، شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ، مَلَأَ اللهُ ﷻ قَلْبَهُ أَمْنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَىٰ مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّىٰ أَثْبَتَهَا لَهُ أَثْبَتَ اللهُ ﷻ قَدَمَهُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزِلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ».

عِبَادَ اللهِ: لَقَدْ ضَرَبَ السَّلَفُ الصَّالِحُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَرْوَعَ الْأَمْثِلَةِ فِي التَّكَافُلِ الِاجْتِمَاعِيِّ، وَمِنْ ذَلِكَ:

مَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ».

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ آخَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ: إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا، فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا، فَإِذَا حَلَّتْ، تَزَوَّجْتَهَا، قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ، هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ؟ قَالَ: سُوقُ قَيْنُقَاعٍ، قَالَ: فَغَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، فَأَتَىٰ بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ، قَالَ: ثُمَّ تَابَعَ الْغُدُوَّ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَزَوَّجْتَ؟»،

قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «وَمَنْ؟»، قَالَ: امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ: «كَمْ سُقْتَ؟»، قَالَ: زِنَةَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ - أَوْ نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ -، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ».

وَذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ»: عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: كَانَ نَاسٌ بِالْمَدِينَةِ يَعِيشُونَ، لَا يَدْرُونَ مِنْ أَيْنَ يَعِيشُونَ وَمَنْ يُعْطِيهِمْ، فَلَمَّا مَاتَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ فَقَدُوا ذَلِكَ، فَعَرَفُوا أَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَانَ يَأْتِيهِمْ فِي اللَّيْلِ بِمَا يَأْتِيهِمْ بِهِ. وَلَمَّا مَاتَ وَجَدُوا فِي ظَهْرِهِ وَأَكْتَافِهِ أَثَرَ حَمْلِ الْجُرْبِ إِلَىٰ بُيُوتِ الْأَرَامِلِ وَالْمَسَاكِينِ فِي اللَّيْلِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ كَانَ يَعُولُ مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ بِالْمَدِينَةِ، وَلَا يَدْرُونَ بِذَلِكَ حَتَّىٰ مَاتَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: احْذَرُوا رَحِمَكُمُ اللهُ مِنْ سَلْبِ النِّعَمِ وَتَحْوِيلِهَا إِلَىٰ غَيْرِكُمْ، أَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ، وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي «حِلْيَةِ الْأَوْلِيَاءِ»، وَحَسَّنَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ عَبَّادًا اخْتَصَّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، يُقِرُّهُمْ فِيهَا مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ، فَحَوَّلَهَا إِلَىٰ غَيْرِهِمْ».

لَقَدْ تَفَشَّتِ الْأَمْرَاضُ وَتَنَوَّعَتْ فِي هَذَا الزَّمَانِ، بَلْ وَاسْتَعْصَىٰ بَعْضُهَا عَلَى الْأَطِبَّاءِ فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا عِلَاجًا، وَكَذَلِكَ عَمَّ الْغَلَاءُ وَارْتَفَعَتِ الْأَسْعَارُ؛ لِكَثْرَةِ الْمَعَاصِي وَالْمُجَاهَرَةِ بِهَا، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾. هَكَذَا الْمَعَاصِي مُزِيلَةٌ لِلنِّعَمِ جَالِبَةٌ لِلنِّقَمِ، مُؤَدِّيَةٌ إِلَىٰ الْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ. فَالتَّوْبَةَ التَّوْبَةَ عِبَادَ اللهِ.